

وصيغ الافعال واوزانها في اللغة العربية عامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الدلالة على سروري وظلال تنصاف الى المعنى الاصلي ، دون زيادة في اللفظ ومع الاحتفاظ بطابع التركيز والدقة قال الثعالبي في الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله عز ذكره « وغلقت الابواب » وقوله ، يدبحون ابتداءكم » و (فعل) يكون بمعنى (افعل) نحو خبر واخبر وكرم وكرم ونزل وانزل ويكون مضافا له نحو افطر اذا جاوز الحد وفطر اذا قصر قال الشاعر:

لا خير في الافراط والتفريط

كلاهما عندي من التخليط

وقلت في كتاب المبهج : اياك والافراط الممل ، والتفريط المخل .

و (افعل) يكون بمعنى فعل نحو استقى وسقى وامحضه الود ومحضه ، وقد يتضادان نحو نشط العقدة اذا شدها وانشطها اذا حلها .

(وفعال) يكون بين اثنين نحو : ضاربه وبارزه وخاصمه وخاربه وقاتله ويكون بمعنى فعل كقوله عز وجل ، قاتلهم الله اي قتلهم .

(وفعال) يكون بين اثنين وبين الجماعة نحو تجادلا وتناظرا وتحاكما ، ويكون من واحد نحو تراهي به ويكون بمعنى اظهر نحو : تفاعل وتجاهل وتماضى وتساكر اذا اظهر غفلة وجهلا ومرضا وسكرا وليس بفاعل ولا جاهل ولا مريض ولا سكران .

(وتفاعل) يكون بمعنى فعل نحو تخلصه اذا خلاصه كما قال الشاعر :

تخلصني من غفلة التي منعمنا

وكت زمانا في ضمان اساره

وكما قال عمرو بن كلثوم :

تهددنا واعدنا رويدا

منى كنا لامك مقتوبنا ؟

ويكون بمعنى التكلف نحو تشجع وتجلد وتحكم ويكون لاخذ الشيء نحو : تادب وتفقه وتعلم ويكون تفعل بمعنى : فعل نحو تعلم بمعنى اعلم كما قال القطامي :

تعلم ان بعض الشر خير

وان لهذه القمم انقسام

(واستفعل) يكون بمعنى التكلف نحو استعظم اي تعظم واستكبر اي تكبر ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استعظم واستقى واستوهب ويكون بمعنى فعل نحو استقر اي قر ويكون بمعنى صار ، نحو استنوق الجمل واستنسر البغاث .

(وافتعل) يكون بمعنى فعل نحو اشتوى اي شوى واقتنى اي قنى اي كسب ، ويكون لحدوث صفة نحو : افتقر واقتنن واما انفعل فهو فعل المطاوعة نحو : كسرتة فانكسر وجبرته فانجبر وقلبتة فانقلب قال ابن جنى : « فاذا رايت العرب اصلحوا الفاظها - العربية - وحموا حواشيها وهدبوها وصقلوا غروبها واردهوها فلا ترين ان العناية اذ ذلك انما هي بالالفاظ : بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنبؤه وتشريف ونظير ذلك اصلاح الوماء وتحسينه وتركيبه وتقديسه وانما المعنى بذلك منه الاحتياط لنوعى عليه وجواره بما يعطر بنشره ولا يمر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويفض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه .

وذاك ان العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ احكامها بالشمر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلتزمها وتكلف استمرارها . فان المعاني اقوى عندها واكرم عليها وافخم قدرها في نفوسها فاول ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار اغراضها ومراميتها اصلحوها ورتبوها وبالقول في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة على القصد .

فكان العرب انما تعلى الفاظها وتديبها وتشبها وتزخرها عناية بالمعاني التي وراها وتوصلا بها الى ادراك مطالبها وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد واشراكا للقلوب وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعاني والمخدوم لا شك اشرف من الخادم والاخبار في التلطف بغدوية الالفاظ الى قضاء الحوائج اكثر من ان يؤتى عليها او يحشم للحال تعب بها .

واعلم انه لما كانت الالفاظ للمعاني ازمة وعليها ادلة واليها موصلة ، وعلى المراد منها محصلة هيت

العرب بها فأولتها صالحا من تثقيفها واصلاحها (1).
 وشيء آخر يجعل اللغة العربية أكثر مرونة في
 الواقع من غيرها . وهو أنها أكثر اللغات قبولا
 للاشتقاق . والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة
 أن تؤدي معاني الحضارة والاشتقاق في العربية يقوم
 بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الاصلي وتلويحه إذ
 يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعدية
 ومطاوعة ومشاركة ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه
 في اللغات الآرية مثلا إلا بالفاظ خاصة ذات معان
 مستقلة ، وصيغ الالفاظ العربية تفرق تفرقة واضحة
 بين الجواني والبراني وبين ما هو حركة في النفس
 وما هو حركة في الجوارح . العربية تفرق مثلا بين
 الكبر والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه .

وقد التفت المستشرق الفرنسي كرادولفو الى
 هذه الظاهرة فلم يسعه إلا أن ينوه بها في كتابه عن
 الغزالي فقال « لقد ميز الغزالي بين الكبر الداخلي
 والكبر الخارجي . الداخلي هو استعداد في النفس
 والخارجي ناتج من افعال الجوارح واللفظ الفرنسي
 الذي يدل على معنى الكبر هو Orgueil أما التكبر
 فأولى أن يكون مرادفه الفرنسي Superbe .

ولاحظ كارا دونو ايضا ان هذه الفروق المصنوية
 الدقيقة التي تحملها الفاظ اللغة العربية
 ليس من اليسور نقلها في لفظ واحد الى اللغات
 الأخرى . وخاص من هذه الملاحظة الى التنويه بما
 تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل
 الفلسفي العميق ما دام أن أحداث تغيير طفيف في
 بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين
 الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها .
 ولا نزاع في أن منهج اللغة العربية الفريدة في الاشتقاق
 قد زودها بلذخيرة من المعاني لا يسهل ادائها في
 اللغات الأخرى في نطاق التركيز الجواني الذي هو
 شيمة الاسلوب العربي الاصيل وقد لاحظ السبوتي
 هذه الزيادة في المعنى المشترك حين عرف
 الاشتقاق بأنه « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقها
 معنى ومادة وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى
 الاصل بزيادة مفيدة لاجلها اختلافا حروفا او هيئة .

وجلي : ان هذه الطريقة في توليد الالفاظ بعضها
 من بعض تجعل من اللغة جسما هيا تتوالد اجزأؤه
 ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية واضحة ، وتفني

عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنزلة التي كان
 لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وان هذا الارتباط بين
 الفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية
 ظاهرة وهي الحروف أو الاصوات الثلاثة . وثبات
 قدر من المعنى سواء كان ماديا ظاهرة أو مختفيا
 مستترا . خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة
 تشعر متعلمها بما بين الفاظها من صلات حية تسمح
 لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها حيوية
 توليدية وليست آلية جامدة .

قال الدكتور عثمان أمين : واذا أردنا مثلا على
 ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف
 فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية .
 فهو يرى في كلمة مثل « صهر » أي اذاب الجسم
 بالنار انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات دقيقة
 من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات فنقول
 انصهر واستصهر وتصاهر ومنصهر ومصهور ، وفي
 العربية منهاجا آخر مخالفا للغات الأخرى فان
 العربية تدل بالحركات على المعاني المختلفة .
 من غير أن تكون تلك الحركات اثرا لقطع أو بقية من
 أداة فيكون ذلك في وسط الكلمة وأولها وآخرها
 فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول
 في مثل مكرم ومكرم وبين فعل المعلوم وفعل المجهول
 نحو : كتب وكتب وبين الفعل والمصدر في مثل علم
 وعلم وبين الوصف والمصدر في مثل فرح وفرح وبين
 المفرد والجمع في مثل اسد واسد وبين الفعل والفعل
 في مثل قدم وقدم وبين الاسم والاسم في مثل :
 سحور وسحور .

2 - العربية وفلسفة الاعراب

اللفة العربية : من اللغات العربية المنبت
 الواسعة الافق اتسعت فاحاطت بإبعاد انغلاقات
 الفكر وارتفعت حتى وصلت أرقى اختلاجات
 النفس .

ولقد زادت مرونتها تبلورا وتفاعلا ونماء وقدرة
 على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الذي
 تعيشه الإنسانية في مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الاصاله الجاهدة المولدة
 المعمادة . والبيزات المطاوعة المتطورة .

(1) الخصائص لابن جني الجزء الاول من 225 - 228 . طبعة الهلال - مصر

ولما كانت معاني السمين مختلفة كان الأعراب الدال عليها مختلفا أيضا . وكأنه من قولهم : «عربت معدته» أي لسدت . كأنها استحالت من حال إلى حال ، كاستحالة الأعراب من صورة إلى صورة .

الأعراب إذن مطلب العقل في اللغة ولذلك يرى بعض الباحثين والدراسين من علماء مقارنة اللغات أن الأعراب أرقى ما وصلت إليه اللغات في الوضوح والإبانة وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ، ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة إلا اليونانية واللاتينية ، ولا يشاركها فيه من اللغات الحديثة إلا الألمانية .

أما اللغات الأرية الحديثة - وتشمل معظم لغات أوروبا الحديثة - فقد خلت من حالات الأعراب ولا مبرر فيها بين الرفع والنصب والجر ، وإنما يقوم مقامها الحاق أدوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر أو بتقديم الألفاظ وتأخيرها مما لا يخرج عن الوضع الخارجي في المكان ، هذا في حين أن اللغة العربية قد استلذت من أول الأمر - ما دام الأعراب مرهبا - وأن يكون الفكر الواسع محددًا للوضع الخارجي وأن يكون النظر إلى المعنى هو المبرر للتقديم والتأخير وتأكيد الإسناد ، وغير ذلك إلا تسرى أنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه ، وشكر سعيدا أبوه ، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر ، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه .

فبالأعراب يعرف الخبر من الإنشاء والمفعول من الفاعل وبه يتميز المضاف من المنعوت والمتعجب من الاستفهام والنعت من الحال إلى غير ذلك .

وبالجملة : فتميز المراض المتكلم عند السماع يكفي فيه الأعراب فالأعراب في مثل (ما أحسن زيد) بفتح نون أحسن وضم ذال زيد كانت « ما » نافية و« أنت تريد أن زيدا » لم يحصل منه أحسان .

وإذا قلت (ما أحسن زيدا) بفتح النون والدال كانت « ما » تمجيبية و« أنت تريد أن شيئا عجيبا جعل زيدا حسنا » .

وإذا قلت (ما أحسن زيد) بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استفهامية و« أنت تريد معرفة أي شيء حسن في زيد علمه أم أدبه أم أخلاقه .. الخ ..

وانك لتحس هذا في كلماتها التي تمثل خطرات النفوس ونبضات القلوب وكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها .

ولهذا صارت - بفعل عوامل مختلفة - لغة هية بأوزة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها مائة وإبانة وانصاحا من المعاني : الأعراب .

والعربية لغة تتوخى الإيضاح والإصالة والأعراب إحدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غابة الإيضاح والانصاح عن صلات الكلمات العربية بعضها ببعض وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وفي اللغات الخالية من الأعراب يعتمد أهل اللغة على القرائن وعلى إضافة كلمات إلى الجملة لفهم المقصود من المعاني ولكن الاعتماد على القرائن ربما لا يطرد - كما يقول صاحب الطراز - فأوجب العربية التفريق بين الفاعل والمفعول والأول وقع اللبس والابهام .

والأعراب : مصدر أعربت من الشيء إذا أوضحت عنه . ويقال : فلان معرب عما في نفسه أي مبين له وموضح عنه ومنه : عربت الفرس تعريبا إذا برفته . وذلك بأن تنسف أسفل حافره .

ومعناه : أنه قد بان بذلك ما كان خفيا من أمره لظهوره إلى مرأة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رخو وأصبح هو أم سقيم وغير ذلك .

وأصل هذا كله قولهم : « العرب » وذلك لما يعزى إليه من الفصاحة والأعراب والبيان ومنه قولهم في الحديث « الشيب تعرب عن نفسها »

والمعرب صاحب الخيل المعرب وعليه قول الشاعر :

ويصهل في مثل جوف الطوى
صهيلا تبين للمعرب

أي إذا سمع صاحب الخيل المعرب صوته علم أنه عربي ومنه : العروبة . والعروبة الجملة وذلك أن يوم الجمعة أظهر أمرا من بقية الأسبوع لما فيه من التأهب لها والتوجه إليها وقوة الأشعار بها قال الشاعر العربي القديم :

يوالم رهطاً للعروبة صيما